إسلاميات

محمود سامي البارودي

المقدمة:

● د. محمد محمود قاسم محمد نوفل ●

يُعدُّ الشاعر محمود سامي البارودي واحداً من أعظم روّاد الشعر الحديث، الذين رفعوا عَلَمَ القول المنظوم عالياً خفّاقاً بعد فترة ركود أدّت بالشعر العربي إلى درجات التدنّي باللفظ والمضمون في وقت جاء بعد عصر وُصِفَ بعصر الانحطاط. لذا فالبارودي قد ساهم في بعث الشعر من رقدته التي عُرفت بالسُبات العميق لفرع الأدب الرئيسي.

ونهوض البارودي بالشعر كان حركة أدبية قوية أيقظت مسامع ومدارك وملكات الشعراء والأدباء في زمانه وما بعد زمانه، فغدت هذه الحركة قوية في السبك والصوغ والترابط بين الألفاظ والمعاني، وكأنها طائر قد نهض بجناحين قويين حلّق في الأجواء نشطاً، وحط هنا وهناك شادياً، فبعث الهمم في النفوس، واستيقظت نشواتها فتجاوبت أصداؤها في حنايا الصدور مما حرّك المشاعر والأذواق.

من هو محمود البارودي:

هو المرحوم محمود سامي باشا البارودي، ابن المرحوم حسن حسني بك البارودي، (الذي كان أميراً من أمراء المدفعية في عهد محمد علي باشا، ثم صار مديراً لناحية دنقلة) وهو ابن المرحوم عبد الله بك الجركسي.

وقد ولد محمود البارودي في بلدة من مديرية البحيرة بمصر اسمها (ايتاي البارود) سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٨م) وإليها نُسب لأن أحد أجداده (وهو الأمير مراد البارودي ابن يوسف جاويش) كان ملتزماً لها فنُسِبَ إليها، وكان ميلاده يوم الأحد من أيام الأسبوع.

وقد مات عنه والده وعمره سبعة أعوام ، فذاق اليُتم مبكّراً وقد شعر هو بذلك وحَزّ هذا في نفسه حتى لمّا بلغ العشرين من عمره، إذ رثى والده بأبيات تنم عن حسرته، وعن الفراغ الذي خَلَّفه والده بعد رحيله فيصف ذلك بقوله:[1]

لا فارس اليوم يحمي السَّرْحَ بالوادي　　طاح الرَّدى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الأقران صولته　　ويتّقي بأسه الضرغامة العادي
مضى وخلّفني في سِنِ سابعةٍ　　لا يرهب الخصْمُ إبراقي وإرعادي
إذا تلفَّتُّ لم ألمح أخا ثِقَةٍ　　يأوى إليَّ ولا يسعى لإنجادي
فإنْ أكن عشت فرداً بين آصرتي　　فها أنا اليوم فرد بين أندادي

وفي أثناء ترعرعه واشتداد عوده، أخذ يتناول وجبات العلم منذ سنة ١٢٦٣هـ حيث كان يحضر مدرسون إلى منزله لتعليمه على عادات أبناء الذوات آنذاك، وبعدها التحق بالمدارس العسكرية زمن الخديوي عباس باشا الأول. ولميله الشديد للأدب، فقد ظهر نبوغه مبكراً، لاسيما وقد التهم دواوين الشعر القديم، يعينه على ذلك فكر نيّر وقريحة وقادة وذكاء عجيب في حسن الحفظ والاستيعاب والتذكر، فغدا نابغة عصره في الشعر، يرد حاضره إلى ماضيه في معارضات كثيرة ربطت أزمنة التطور والحضارة، بمرابع القيصوم والشيح والعرفج في أقاصي نجد. وشعره في معظمه جاء جزلاً مترابطاً ذا ماء ورونق.

ولم يكتف البارودي بهذا، بل أتقن اللغة التركية والفارسية، ونظم شعراً بهذين اللسانين، إلى جانب كتابات نثرية رائعة.

ثقافة العسكرية:

التحق البارودي بالمدارس العسكرية، فنشأ نشأة حربية عسكرية صحيحة، يعشق النظام والانضباط في كل شيء، فزاد إلى علومه بالعربية معرفة ودراية بالأمور العسكرية. فبعد أن أنهى علومه العسكرية الأولى في مصر، فقد أُرسل في مهمات عسكرية إلى باريس ولندن، وترقّى في الرتب العسكرية حتى وصل إلى رتبة الياورية سنة ١٢٩٠هـ، ورتبة أمير اللواء سنة ١٢٩٤هـ، وكان ذلك بعد أثبت مقدرة حربية فائقة وشجاعة

عَزَّ مثلها، وذلك أثناء التحاقه بالجيش المصري الذي أُرسل لمساعدة الجيش التركي في إخماد الفتن القائمة على الدولة العثمانية في جزيرة **كريت** سنة ١٢٨٢هـ، غير أنه جعل الشعر رفيقاً للسيف، فنظم الدرر الجياد كقوله:

ولما تداعى القوم واشتبك القنـا — ودارت كما تهوي على قطبها الحرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا — سُقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرتُ لها حتى تجلّت سماؤهـا — وإني صبور إنْ ألـمَّ بي الخطبُ

واشترك في الحرب ضد روسيا إلى جانب تركيا سنة ١٢٩٤هـ، ثم تدرّج في المناصب العسكرية حتى وصل إلى رتبة فريق سنة ١٢٩٧هـ، وبعدها عُين رئيساً للوزراء في ١٥ ربيع الأول ١٢٩٩هـ. فكان في كل مكان وميدان فارساً لا يُشَقّ له غبار، ويحمل العبء بأمانة وإخلاص ومسئولية جديرة بالتقدير والثناء، لما عُرف عنه من حُبّه لعمله ووطنه ومواطنيه.

صلة البارودي بالمجتمع:

على الرغم من تقلبه في المناصب العسكرية، وتقلّده رتباً عالية، إلاّ أنه كان يقوم بما يُسند إليه من مناصب إدارية لرأب صدع جدار الحكم في مصر عندما كانت تشتدُّ الأزمات السياسية، فكان لا يعجز عن تحمل أي مسئولية تسند إليه، حتى عندما كان يُلقى به في مهاوي الرّدى في مقارعة أعداء الدولة العثمانية. فقد عُين مديراً لناحية الشرقية، ثم رئيساً لضبطية القاهرة، فشمّر عن ساعد الجدّ والإخلاص وعمل على إصلاح الأمور والإدارات. فحارب الفساد والرشوة في هِمّة الرجل المسلم المسئول، فقضى على دابرهما تماماً، فاستقام الناس إلى حَدّ كبير وكان ذلك سنة ١٢٩٥هـ.

ولمّا عين ناظراً للأوقاف المصرية سنة ١٢٩٦هـ في عهد الخديوي (محمد باشا توفيق) فقد اهتم بالأوقاف اهتماماً عظيماً، وعمل على ترتيب قوانينها، فسدَّ أبواب الفساد من رشوة وسرقة وتلاعب، وبهمّة المصلح المسلم المؤمن أقام المساجد والعمارات لمصلحة الأوقاف، واستعان بعلماء المسلمين، كما استعان ببعض المهتمين بالتواريخ الإسلامية لضبط الأماكن الإسلامية القديمة، وتحديد مواقعها لترميمها، أو لانشاء أبنية مناسبة على أنقاضها. واهتم بكتب الوقف الإسلامي، لا سيما تلك المجموعات المحفوظة في المساجد، فأمر

بالعناية التامة في ترتيبها والمحافظة عليها وهذا ساعد كثيراً في إنشاء المكتبة المصرية المعروفة بالكتبخانة الخديوية، واهتم البارودي بالآثار الإسلامية وغير الإسلامية مما كان يعثر عليها، وخصّص لها مكاناً للحفظ والصون في بعض المساجد كجامع الحاكم.

ولعلّ هذه الطوابع الإسلامية في سلوك وتصرفات محمود البارودي، قد لازمته حتى في أحلك ساعات حياته في منفاه، ولا عجب، فإن المؤمن هو الذي يرجع إلى الله كل حين، ويتمسَّك بحبل الله حتى ولو كان في مصائب وصعاب، لأن التعلق بحبل الله سبحانه، يؤدي بالمرء إلى النجاة وانفراج الأزمات.

فهو عندما كان منفياً في جزيرة سرنديب، عمل جاهداً ناشراً لدين الله القويم في تلك الديار، فأخذ ينشر تعاليم هذا الدين الحنيف بين أهالي الجزيرة ويعلمهم القراءة والكتابة العربية ليتمكنوا من تعلّم القرآن وفهم معانيه وتدبّر آياته.

كما كان خطيباً بارعاً في المساجد في أسلوب مناسب يفهمه الناس الذين دخلوا حديثاً في دين الله القويم. وبقي على هذه الحال في نشر تعاليم الدين الإسلامي في جزيرة سيلان (سرنديب) حتى عاد من النفي إلى بلاده مصر في الثامن عشر من شهر محرم سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠/٥/١٧م) وذلك زمن الخديوي عباس حلمي الثاني.

والمحن كثيراً ما تقوّي العزائم وتشحذ الهمم إذا كانت النفس الإنسانية تفوح منها نسائم الإيمان. فعندها يتجمّل صاحبها بالصبر الجميل ويرضى بقضاء الله سبحانه ويحمده على نعمه وآلائه طالباً العون والعفو في تذلّل وخشوع، وهذا ما كان من شاعرنا البارودي حيث قال[٢]:

ولي أملٌ في الله تحيا به المُنى ويشرقُ وجه الظنّ والخطبُ كاشر
وما هي إلاّ غمزة ثم تنجلي غيابتها والله مَنْ شاء ناصر

وكثيراً ما كان يؤم المصلين ويخطبهم في الجمع وغيرها، ويعلّم الناس في المساجد اللغة العربية (حتى يعرفوا لغة دينهم الحنيف)[٣].

وتميل نفسه إلى الزهد، فينخرط زاهداً في الدنيا وهو في سرنديب دون أن يفقد سيطرته على إرادته وعزيمته، فنراه ينظم قصيدته الميمية معارضاً بها قصيدة البوصيري في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله[٤]:

أمِنْ تذكُّر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلةٍ بدم
أم هَبَّت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من أضم

أمّا قصيدة البارودي في مدح سيد الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فمنها قوله[٥]:

يا رائد البرق يَمّمْ دارة العلم واحْدُ الغمام إلى حيٍّ بذي سلم
وإن مررت على الروحاء فاهد لها أخلاف سارية هتّانة الدّيم

وقد سمّاها البارودي: (كشف الغمة في مدح سيّد الأمة)، وفيها يصوّر السيرة النبوية العطرة تصويراً يأخذ بالألباب، وقد جعلها ملحمة في أربعمائة وسبعة وأربعين بيتاً.

وتتجلّى عاطفة البارودي في قصيدته هذه، فيبدع فيها بحسن الوصف والتخيل في عروج الحبيب المصطفى إلى السماء، في رقّة وروعة فيقول:

سما إلى الفلك الأعلى فنال به قَدْراً يجلُّ عن التشبيه في العِظم
وسار في سُبحات النور مرتقياً إلى مدارجَ أعيت كلّ معتزم
وفاز بالجوهر المكنون من كلم ليست إذا قُرنت بالوصف كالكلم
هيهات يبلغ فَهْمٌ كُنْهَ ما بلغت قُرباه منه وقد ناجاه من أمَمِ

ورغم المشاغل الكثيرة التي كانت تشغل باله وتستحوذ على أوقات فراغه، رغم ذلك كلّه، فقد كان رفيقاً مخلصاً وصديقاً حميماً لكتب الأدب والتراجم والتأليف. فقد اطّلع على كثير من كتب الأدب النثرية والشعرية وكتب حولها التعليقات والمختارات الأدبية التي تعدُّ مرجعاً ممتازاً من مراجع الأدب العربي كتلك المختارات الشعرية المعروفة باسم: مختارات البارودي. وهي عبارة عن قصائد شعرية منتقاة من ثلاثين ديوان شعر من شعر فحول المولّدين وشعراء الدولة العباسية والأندلس، حيث انتقى من هذه الدواوين ما رقَّ وطاب في اللفظ والمعنى، وخلا من الحشو والتعقيد، فغدت باقة من الجزالة والعذوبة، وجاءت في سبعة أبواب هي: الأدب والمديح والرثاء والصفات والنسيب والهجاء والزهد.

كما رتب أسماء الشعراء فيها حسب أزمنتهم لا حسب مكانتهم، شأنه في ذلك شأن محمد بن سلام الجمحي، في ترتيب الشعراء في كتابه: طبقات الشعراء. أما الشعراء الذين اختار لهم البارودي فمنهم:

بشار بن برد، العباس بن الأحنف، أبو نواس، مسلم بن الوليد، أبو العتاهية، محمد ابن عبد الملك الزيات، أبو تمام، البحتري، ابن الرومي، المتنبي، أبوفراس الحمداني، ابن هانىء الأندلسي، السري الرفاء، ابن نباتة السعدي، الشريف الرضي، أبو الحسن التهامي، مهيار الديلمي، أبو العلاء المعري، ابن سنان الخفاجي، صَرَّ دَرَّ (ت سنة ٤٦٥هـ)، ابن حيوس، الطغرائي، الغزي، ابن الخياط، وغيرهم.

ورغم عظيم احتكاكه على المستويين الشعبي والرسمي، إلاّ إنه كان صافي النفس،طاهر القلب واسع الحلم، وكان يقول[٦]: «لا أجد بقلبي بُغضاً لأحد ولو أساء إليَّ».

كما ألف كتاباً عُرف (بقيد الأوابد) حيث أودعه عيون الرسائل والخطب والتوقيعات[٧]، إلى جانب ديوان شعره الواسع ومقدمة الديوان النثرية.

وعلى كل حال، فهو قد خالف سُنَّة لداته من أبناء الذوات لانصرافه إلى الكتابة والتأليف والشعر، حيث كانوا يُعيّرونه بأمرين اثنين: (أولهما انصرافه إلى الكتابة والشعر، وثانيهما اندماجه في المصرية والمصريين)[٨]، وهذا مما يعطينا انطباعاً أكيداً على صدق انتمائه لمصر وللإسلام وللعرب، لأن اللغة العربية هي لغة الدين والقرآن، وبالحرص عليها وبالتأليف فيها ولها، كل ذلك يعين على تفهم ما في الكتب من معالم الدين الحنيف ويعين على مكارم الأخلاق، لذا نراه يقول[٩]: «والشعر ديوان أخلاقٍ يلوح به ما خطه الفكر من بحث وتنقير»، ويذكر الأستاذ عمر الدسوقي بعضاً من خلقه القويم فيقول: [١٠]: «كان البارودي في صباه متوثّب العزيمة،واسع الآمال،عزوفاً عن الملاهي،لا يُرى عاتباً على شيم الدهر ولا عابثاً ولا مزّاحاً».

وبعد، فللشعر عند البارودي وظيفة مهمة في حياة الأفراد والجماعات أقربها (تهذيب النفوس وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق) ولا أدلّ على ذلك من خشوع جوارحه وذوبان نفسه في حسن التذلل لله سبحانه، وهو يتعلّق بحبال الدعاء والضراعة، وبكرامة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، طالباً العفو والمغفرة من رب العباد فيقول[١١]

هو النبيُّ الذي لولا هدايتـه ... لكان أعلم من في الأرض كالهمج
يا ربّ بالمصطفى هب لي وإن عظمت ... جرائمي رحمةً تغني عن الحُجَجِ

ولا تكلني إلى نفسي فإنّ يدي مغلولة وصباحي غير منبلج
مالي سواك وأنت المستعان إذا ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

الطوابع الإسلامية في نثر البارودي:

عُرف عن محمود سامي البارودي حسن الاتصال بالإسلام نصاً وروحاً، عملاً واعتقاداً، مما أظهر الكثير من الآثار الإسلامية في أقواله وأفعاله، إلى جانب خلق كريم قويم حبّبه إلى قلوب الناس فأمال قلوبهم نحوه. ولعلّنا نلمس نثره قبل شعره وقد بدت عليه الآثار الإسلامية في حسن الوصف والتضمين من معاني القرآن الكريم معنىً ولفظاً، وفي حسن الدعاء والتوسل إلى الله القدير لينجيه من مصيبة الغرق وهو على ظهر سفينة تمخر به وبرفاقه عباب البحر الشامت بهم، وذلك كقوله[١٢]:

«... والناسُ بين رجاء وقُنوط، فشخصت الأبصار، وغابت الأنصار، وأقبل الفزع، واستولى الجَزَع، وشغلت الدموعُ المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، هنالك دعا ربهم الغافلون، وكفّت أذيالهم الرافلون،... كأنما أظلّتهم الرجفة أو غشيتهم الوجفة، حتى كادت الأنفس تزهق، وأظفار المنية ترهق، ونحن في وعاء لا نملك إلاّ الدعاء، وكيف لنا بالخلاص ولات حين مناص».

فكما هو واضح بيّن، فإنّ الألفاظ القرآنية والمعاني القرآنية أيضاً، قد تكررت في قوله هذا، وكأنه استجار بالله قلباً وقالباً، وهذا لا يكون إلاّ ممن اتخذ الإيمان سبيلاً إلى قلبه، فعندها ترجم أحاسيسه إلى أقوال وأفعال. وبعد ذلك الوصف الحيّ الدقيق لحالته وحالة صحبه، في السفينة، في قول اتّسَمَ بالقالب النثري الفني البديع على طريقة مقامات البديع الهمذاني أو مقامات أبي القاسم الحريري، بعد ذلك كله، نراه يشخص ببصره إلى السماء وهو يدعو الله سبحانه بكلمات عذبة تظهر التذلل والخشوع إلى الله فيقول[١٣]: «ثم رفعت طرفي إلى السماء،ودعوت بهذه الأسماء: اللهم يا هادي الضُلاّل في الليل المدلهم، وناصر الهُلاّك في غمرة اليوم المُسْلَهِم، ويا جابر العثرات وكاشف الحسرات، ألهمني بفضلك صبراً يعصمني من الجزع، وألبسني جلباب أمْنٍ يقيني صولة الفَزَع، وقِني بلطفك شرَّ نفسي، واجعل يومي خيراً من أمسي،... فلا تصرفني من دعائك خائباً، فقد جئتك من ذنوبي تائباً».

ثم يختم دعاءه بكلام ناصح أمين، وواعظ كريم فيقول[١٤]: «هيهات لا إدراك بعد الفوت، ولا حيلة بعد الموت، فتمسّكوا من أعمالكم بالسبب الأقوى، وتزوّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى».

فهو قد استقى هذه المعاني الكريمة من قول الله العظيم : «أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض،ءإلهٌ مع الله قليلاً ما تذكّرون»[١٥].ولعل المواقف الحرجة قد أثّرت في نفسه، فزادته يقيناً وحباً لله سبحانه، ودعته إلى أن يسلك سبل الرشاد فيحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة، فيظل بذلك مراقباً لله جل عُلاه. فغدت نفسه زاهدة لاسيما وقد صار يرى الفجيعة تلو الفجيعة تحلّ به أو بالقرب من داره، وكأنّها مهماز ينبهه إلى واقع نفسه، لذا نراه يصور بعض انطباعاته النفسية بأن الحياة مهما طالت فمآلها إلى الزوال، فيضرب الأمثال لكل ذلك. فيقول[١٦]:

كـلّ حـيٍّ سيمـوت ... ليس في الدنيـا ثبـوت
حـركات سوف يفنـى ... ثم يتلوهـا خفـوت
أيـن أمـلاك لهم ... في كل أفُـقٍ ملكـوت
زالت التيجـان عنهم ... وَتَخـلَّتْ تـلك التخـوت
إنما الدنيـا خيـال ... باطـل سوف يفـوت
ليـس لـلإنسان فيها ... غير تقـوى الله قـوت

والحقيقة أن مثل هذا الشعر يذكرنا بشعر أبي العتاهية الذي عرف بالزهد ونسب الزهد إليه من بين شعراء الدولة العباسية أكثر من غيره.

الاقتباس القرآني في شعر البارودي:

لقد كان للنزعة الإسلامية أثر واضح بيّن في أقوال محمود البارودي وأفعاله، فقد رأينا من خلال عرضنا لسيرته في الصفحات السالفة، كيف عمل جاهداً على إحياء التراث الإسلامي عن طريق تشييد المساجد على أنقاض المساجد الأثرية، أو ترميم تلك المساجد الإسلامية القديمة وتزيينها وجعل بعضها مستودعاً لكثير من التحف الإسلامية كمسجد الحاكم في القاهرة، وذلك خلال عمله مسئولاً عن الأوقاف، ثم أخذه بيد من حديد على أيدي وتصرفات الراشين والمرتشين مما وضع حداً للفساد في عهده، وردّ

الأمور إلى جادة الصواب قدر استطاعته. ثم ما كان منه بعد نفيه إلى سرنديب (جزيرة سيلان)، من نشر دين الله الحنيف هناك وإنشاء المساجد وتعليم اللغة العربية لمن أسلم من أهل تلك البلاد ليتحفهم بحسن معرفة دينهم الجديد، وقيامه في كثير من الأحيان بخطب الجمعة في المساجد، كما كان يؤم الناس في الصلاة. كل ذلك كان أفعالاً نابعة من إيمانه وخوفه من خالقه، وتقرّبه إلى الله السميع العليم.

كما ترجم البارودي أحاسيسه شعراً حمّله الكثير من الألفاظ القرآنية مضمّناً أقواله آيات قرآنية كاملة، أو بعض آية مما زاد قوله روعة وجلالاً وسموّ معنى. وغير هذا فقد كان يقتبس من المعاني القرآنية ويضمنها شعره، وما ذاك إلا دليل واضح وأكيد على مدى ارتباطه بكتاب الله. فمن اقتباسه للمعاني القرآنية وصوغها في شعره ما قاله عندما سجن في مصر وقت أُلقي القبض عليه وعلى رفاقه من قبل الإنجليز، وبالتالي ترحيلهم إلى المنفى في جزيرة سيلان. أما رفاقه الذين أُلقي القبض عليهم وأودعوا معه السجن هم: (أحمد عرابي، عبد العال حلمي، طلبة عصمت، يعقوب سامي، محمود فهمي)، حيث حوكموا محاكمة صورية ثم أُركبوا قطاراً أقلّهم من ثكنة في قصر النيل إلى السويس، ومنها أُركبوا باخرة إلى جزيرة سرنديب، وكانوا قد سُلبوا الرتب العسكرية والنياشين التي حصلوا عليها، وصودرت أملاكهم وجميع امتيازاتهم الأخرى.

أما قوله في سجنه فمنه:(١٧):

يـا أيها الظـالم في ملكـه ... أغـرَّك الملكُ الـذي يَنْفَـدُ؟
اصنع بنا ما شئت من قسوة ... فـالله عَـدْلٌ والتـلاقي غَـدُ

وهذا الخطاب موجه إلى **الخديوي توفيق** لأنه هو الذي أمر بسجنهم ونفيهم بأمر من الإنجليز. وحقيقة الأمر أن سبب سجنهم ونفيهم هو مطالبتهم بالعدالة في الحكم وإنفاذ أمر الشورى والقضاء على الفساد والمستعمر والإخلاص في الدين، لذا نراه يصرّح بذلك في مثل قوله:(١٨):

يقول أناسٌ إنني ثُرْتُ خالعاً ... وتلك هَناتٌ لم تكن من خلائقي
ولكنني ناديت بالعدل طالباً ... رضا الله واستنهضت أهل الحقائق
أمرتُ بمعروف وأنكرت منكراً ... وذلك حكمٌ في رقاب الخلائق

وإن كان عصياناً قيامي فإنني أردت بعصياني إطاعة خالقي
وهل دعوةُ الشورى عليَّ غضاضة وفيها لمن يبغي الهُدي كلُّ فارق
بلى إنها فرضٌ من الله واجبٌ على كل حيٍّ من مسوق وسائق
فإنْ نافق الأقوام في الدين غدرة فإني بحمد الله غير منافق

فهو قد فعل ما فعل إرضاءً لله سبحانه، وامتثالاً لأوامره واجتناب نواهيه، كمطالبته بإقامة العدل الذي أمر به الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله وعصيان خلقه إذا كان ذلك يرضي الله، ثم دعوته لإقامة الشورى كنظام أراده الله (وشاورهم في الأمر)، ثم استشعار الموت وما يتبع ذلك من حساب وثواب أو عقاب، فالدين عنده نقي لا تشوبه شائبة الرياء والنّفاق، فالعدل في القول والعمل هو أساس الملك. لذا نراه يكرّر مثل هذه المعاني في أبيات أخرى من قصيدة ثانية يجعل فيها دينه أول كل شيء ورأسه ولا يعدّ ذلك خطأً إن اغتاظ منه الآخرون أو اعتبروه منقصة، فهو يقول(١٩):

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنبٌ أُدان به ظلماً واغتربُ؟
فلا يظنُّ بي الحساد مَنْدَمةً فإنني صابر في الله محتسب

فصبره من عزم أمره وقوة إيمانه وحسن توكله على الله ، كل ذلك جعله يرضى بما يصل إليه دون أن يتزلّف لهذا أو لذاك ليحصل على ما يريد، لذا يصرح بذلك في قوله:(٢٠)

وكن وسطاً لا مُشرئباً إلى السُّها ولا قانعاً يبغي التزلّف بالصُّغْر

إنها وصية إلى كل ذي لب وبصيرة حتى لا يكون عوناً على إذكاء روح الرذيلة والمهانة في سبيل الوصول إلى ما يريد.

وكذلك قوله الذي تطمئن به نفسه بالإيمان بحكم الله وقدرته، وأنه إليه المرجع والمآل وهو شديد المحال، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور :(٢١).

يودُّ الفتى ما لا يكون طماعة ولم يدر أن الدهر بالناس قُلَّبُ
ولو علم الإنسان ما فيه نفعُه لأبصر ما يأتي وما يُتجنَّبُ
ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سِرٌّ مُحجَّبُ
نظنُّ بأنَّا قادرون وإننا نُقاد كما قِيد الجنيب ونُصْحَبُ

ونراه يدعو إلى تقوى الله سبحانه في أكثر من قصيدة أو مقطوعة شعرية، مردداً الألفاظ القرآنية نصّاً وروحاً كقوله :(٢٢)

يــا أيها النــاس اتقــوا ربكــم　　واخشوا عــذاب الله والآخــرة

فهذا من كلام الله في سورة الحج[٢٣] «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم»، ومن قول الله في سورة لقمان[٢٤]: «يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً».

وقوله:[٢٥]

على هــذا يسير النــاس طُــرّاً　　ويبقــى الله خالــق كلّ نــفس

فهذا من قول الله سبحانه في سورة الرحمن[٢٦]: «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

وقوله[٢٧]:

وإن خفــي الحق فــاصبر لــه　　وبـــادر إليـــه إذا حصحصا
واخــلص لــربك في كل مــا　　نــويت تجد عنـــده مخلصا

فهو قد أخذه من قول الله تعالى في سورة يوسف الآية (٥١) «الآن حصحص الحق»، ومن قول الله تعالى في سورة الطلاق الآية الثانية: «ومن يَتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب».

وقوله:[٢٨]

أرى كلّ حيّ ذاهباً بيد الرّدى　　فمن أحد ممن ترحّل راجعُ؟

وهذا أيضاً من قوله تعالى في سورة القصص الآية (٨٨) «لا إله إلّاهو كلّ شيء هالك إلّا وجهه».

كما أخذ من النص القرآني نصاً كقوله:[٢٩]

ولا تطــل فكـــرة التمنـــي　　فإنـــه الحكـــم والـــقضاء
يريـــد كل امـــرىء منـــاه　　(والله يفعـــل مـــا يشاء)

وعجز البيت الثاني من قول الله سبحانه وتعالى في سورة الحج الآية (١٨): «إن الله يفعل ما يشاء»، ومن قول الله أيضاً في سورة إبراهيم الآية رقم (٢٧): «ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء».

وكذلك قول البارودي التالي المأخوذ من قول الله الكريم في سورة آل عمران الآية (٤٧): «قال كذلك الله يخلق ما يشاء»:

صور تدلُّ على حكيم صانــعٍ　　والله يخلــق مـــا يشاء ويبرأ

والبيت المذكور من قصيدة يصف فيها جزيرة (كريت) وما فيها من خيرات حسان.

وفوق ذلك، فالبارودي يتمنى لو يطول به العمر حتى يظل يتغنّى بالحبيب محمد صلى الله عليه وسلم في ابتهالات ومدائح وحداء فهو يقول في ذلك:[٣٠]

وهـــل أراني رفيـــق حـــادٍ يمدح خيـــار الأنـــام يحدو
عسى إلهي يـــــفكُّ أسري فهـــو فعـــول لما يَـــوَدُّ

فالشطر الثاني مأخوذ من معنى الله الكريم في سورة البروج الآية (١٦): «فعّال لما يريد» وفي معنى قول الله العظيم في سورة الذاريات الآية(٥٦): «وما خلقت الجنَّ والإنس إلّا ليعبدون». قال البارودي:[٣١]

مـا خلـق الله الـورى باطـلاً ليرتعـوا بين البـوادي سُدى

وفي معنى قول الله عزَّ وجل في سورة الأحزاب الآية(٤): «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» يقول الشاعر[٣٢]

فقلت هيهات أن أبغي بها بدلاً لم يخلق الله من قلبين في جَسَد

ومن معنى قول الله سبحانه في سورة لقمان الآية(١٨): «ولا تُصعّر خدّك للناس» يقول البارودي[٣٣]

وصاحبٍ رعـيتُ دهـراً وُدّه ولم أبايـــن نهجـــه وقصده
حتى إذا ما الدهر أورى زنده صَعَّر لي بعد الصفاء خـدَّه

ومن معنى قول الله سبحانه في عاد وثمود في سورة الحاقة الآية (٦): «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية»، ومن قوله في سورة فصلت الآية (١٦) «فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات» ومن قوله في سورة القمر الآية (١٩): «إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر»، استقى من هذه الآيات البيّنات قوله:[٣٤]

أباده الدهر رغماً بين أسرتـه كما أباد بريحٍ صرصرٍ عـادا

وأخذ من قول الله تعالى في سورة النساء الآية (٤٨): « إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»، ومن قول الله تعالى في سورة الزمر الآية (٥٣): « «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» قوله:

لا يقنط المرء من غفران خالقه ما لم يكن كافراً بالبعث والقدر

وفي حثّه على الصبر وما ينتظر الصابرين من أجر وثواب يقول:[٣٥]

ولو لم يكن في الصبر أعدل شاهدٍ على كرم الأخلاق ما حُمد الصبر

وقوله:[٣٦]

يا قلب لا تجزع فإنَّ المنـى في الصبر والله مـع الصابـر

والمعنى فيهما مأخوذ من قول الله الحكيم في سورة البقرة الآية (١٥٥)«وبشر الصابرين»، وقوله في سورة الأنفال الآية (٤٦): «إن الله مع الصابرين»، وسورة البقرة الآية (١٥٣) في قوله الكريم: «استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين».

وكذلك قوله الذي استقى المعنى فيه من الآيات المذكورة السابقة من سورتي البقرة والأنفال، فهو يقول:[٣٧]

وللموت أسباب ينال بها الفتى فمن بات في نجدٍ كمن بات في وَهْدِ
وكل امرىءٍ في الناس لاقٍ حمامه فسيّان ربُّ العير والفرس النهد
فدع ما مضى واصبر على حكمة القضا فليس ينال المرءُ ما فات بالجهد

وأخذ من لفظ ومعنى قول الله في الآيات (٣١،٣٢،٣٣،٣٤) من سورة النبأ: «إنَّ للمتقين مفازاً، حدائق وأعناباً، وكواعب أتراباً، وكأساً دهاقاً»، فهو يقول:[٣٨]

حيث الصبا نهبٌ وسلسال الهوى عـذبٌ وآنيـة السرور دِهـاقُ

وقول التالي الذي أخذه من قول الله تعالى من سورة الأعلى الآية (١٧): «والآخرة خير وأبقى»[٣٩]:

فعلـيك السلام منـي فإنـي مِتُّ شوقاً (والآخرةِ خير وأبقى)

وكذلك قوله الذي أخذه من معنى ولفظ الآية الكريمة من سورة الرحمن الآية (٧٦): «متكئين على رَفْرَفٍ خضرٍ وعبقريٍّ حسان»، ومن قول الله سبحانه في سورة الإنسان الآية (٢١): «عليهم ثياب سندسٍ خُضْرٌ وإستبرق». والآيتان تشرحان حال أهل الجنة، وتعرضان بعضاً من النعيم المقيم الذي ينتظرهم فقد قال:

ولا برحت من الأوراق في حللٍ من سندسٍ عبقريّ الوشي برّاق

(الديوان ج ٢ ص ١٠٨).

وكذلك قوله الذي أخذ من قول الله تعالى في سورة يوسف الآية (١٨)

«صبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، فهو يقول:[٤٠]

يا قلبُ صبراً جميلاً إنـه قـدر يجري على المرء من أسرٍ وإطلاق

وأخذ من قول الله تعالى في سورة الإسراء الآية (٢٩): «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً»، فصاغ منه قوله[٤١]

ولا تكن مسرفاً غِرَّاً ولا بخلاً فبئست الخلَّةُ الإسراف والبُخْـل

ومن قول الله الكريم في سورة الحجر الآية (٨٥): «وإن الساعة آتية فاصفح الجميل»، فإنه يقول:[٤٢]

يا هاجري ظُلماً بغير خطيئـةٍ هل لي إلى الصفح الجميل سبيلُ ؟

فبمثل هذه الاقتباسات اللفظية أو المعنوية نظم محمود سامي البارودي كثيراً من أشعاره التي استقاها من كلام الله العليم الوارد في كتابه العزيز. وهذا قليل من كثير ينم عن إسلاميات البارودي، ومدى ارتباطه بكتاب الله سبحانه، مما يعطينا دلالة واضحة عن صدق نبته الإسلامية، وقبلها تعرّفنا على صدق أعمال الخير والطاعة والأخلاق الفاضلة التي كان يقوم بها.

وعلينا الآن أن نتعرف على درب من دروب السلوك الأخلاقي الحميد والإسلامي الرشيد، وذلك من خلال تناول أشعاره التي يدعو فيها إلى مكارم الأخلاق والتمسك بحبل الدين القويم، الذي يصل به إلى شاطئ الأمان وَبَرِّ النجاة في زمن تصدّعت فية جدر الأخلاق وَوَهَى غربها وعزّ نصيرها إلاّ من فئة حباها الله عقلاً نيّراً وخلقاً صحيحاً وقلباً واعياً وبصيرة نفّاذة، إلى جانب تقوى وخشوع لله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض.

أما هذه الدرب الربّانية عند الشاعر فتتلخص في حسن اختياره للكلمات والعبارات الأخلاقية ذات الدلالات السامية، التي بها يعالج حال الناس إلى ما فيه الخير، وحال الساسة إلى ما فيه العدل والشورى والحفاظ على الأمن، ثم العلائق الكريمة بين الناس كل الناس وبين خالقهم البارىء المصور. فمن هذه الكرائم قوله الذي يدعو فيه إلى تسليم مقاليد الأمور لله العظيم[٤٣]:

وكُنْ واثقاً باللهِ في كل محنـةٍ فَلَلّـهُ أولى بالعبـاد وأرفـق

وعندما يحيق الظلم به مِمّن حاكوا حوله الدسائس، فإنه يفزع إلى الله ليأخذ بحقه من الظالمين فهو القاهر فوق عباده، فيقول[٤٤]:

يـا نـاصر الحقّ على الباطــل خذ لي بحقّي من يَدَي مـاطلي
جـار على ضعفـي بسلطانـه ومـا رثى للمدمـع الهاطــل
أخرجنـي عمّـا حوتـه يـدي مـن كسبـي الحر بـلا ناطــل
فـإن أكـن جُرِّدْتُ مـن ثـروتي فــفضلُ ربي حِليـةُ العاطــل

ومن ذلك قوله أيضاً:(٤٥)

سلِّــم أمــــورك للــــذي أنشاك مـــن عـــدم وعَـالَـــك
ودع التعلق بالمحال فإنه يبري مِحالك

ومن دعوته للاعتبار بالسالفين وأهل القبور، وما آل إليه وضعهم، قوله في أبيات يصف حال أهل القبور بعد أن كانوا في عِزّ وسؤدد وجمال وهيئة في حياتهم الدنيا:(٤٦)

أيـــن أهـــل الـــدار فانظـــر هـــل تـــرى بالـــدار أهــــلا؟!
رُبَّ جُسْنٍ في ثيــــــاب عــــاد غسلينـــــاً وَمَهــــلا
وعيــــونٍ كُـــــنَّ سوداً صرن عنـــد الموت شُهــــلا
سوف يلقـــى كـــلُّ بـــاغٍ في الــــورى خزيـــــاً وبهلا
إنما الدنيـــــا غُــــــرورٌ لم تـــدع طفـــلاً وكهـــلا
كم حــــــكيم ضَلَّ فيها فاكـــتسى بالعلـــم جهـــــلا

صدق الشاعر في حسن اقتباسه وصياغته، فالحياة الدنيا متاع الغرور، وكم غَرَّت شيباً وشبّاناً، وأودت ببهجة وحياة الكثيرين من بني البشر، ولم ينج منها إلاّ الكَيِّسُ الذي يُدِينُ نفسه ويعمل لما بعد الموت.

ومثل المعاني السابقة في الأبيات الشعرية المذكورة آنفاً قوله أيضاً:(٤٧)

أيـــن الألى شقّـــوا البحـــور وشيـــــدوا ذات العمــــــاد
بـــل أيـــن أصحــاب الوفـــود وأيـــــن أربـــــاب الجلاد
بـــل أيـــن صُنّــــاع القـــريض الجَـــزْل والكلـــم الفِـــراد
كالشاعـــــر الضليـــــل أو قُسّ بـــن ساعـــدة الأيـــادي
لـــعب الزمــــان بجمعهـــم ورمــــــى بهم في كل واد
فكـــــأنهم لم يلبثـــــوا إلاّ بيـــــــاضاً في سواد

فهو يُذَكِّرُ ، والذكرى تنفع المؤمنين، ويسمي بعض الشخصيات البائدة التي شغلت التاريخ زمناً حتى يومنا هذا، غير أنهم الآن أصبحوا وكأنهم لم يكونوا، وهذه أحوال الدنيا، مولد وحياة ثم موت وفناء لذا يكرر مثل هذه المعاني كقوله:(٤٨)

حياة المرء في الدنيا خيال وعاقبة الأمور إلى نفاد
فطوبى لامرئٍ غلبت هواه بصيرته فبات على رشاد

وكقوله:(٤٩)

لعمرك ما حيٌّ وإن طال سيره يُعَدُّ طليقاً والمنون له أسر

ومادام العمر إلى زوال، لذا لا نعجب عندئذٍ من قوله:

فاعرف إلهك واحذر أن تبيت على وِزرٍ ولا تَتَّخذْ ظلم الورى عادا

وقوله:

ولا تلتمس من غير مولاك هادياً إذا الله لم يهد العباد فمن يهدي؟؟

يقول الله سبحانه في سورة الرعد الآية (٣٣): «ومن يضلل الله فما له من هاد»، وفي سورة الأعراف الآية (١٨٦): «من يضلل الله فلا هادي له»، فكأنه يردد القول الكريم السامي:

حسبنا الله ونعم الوكيل، فهي كنز لا يعدم السعادة قائلها، لذا يزجر نفسه زجراً عندما يذهب به الحزن كثيراً لموت زوجته فيقول:(٥٠)

تعس امرؤ نسي المعاد وما درى أنّ المنون إليه بالمرصاد
فاستهد يا (محمود) ربك والتمس منه المعونة فهو نعم الهادي
وأسأله مغفرة لمن حَلَّ الثرى بالأمس فهو مجيب كل مناد

وهذا مصداق لقول الله تعالى في سورة غافر الآية (٦٠): «وقال ربكم ادعوني استجب لكم» فالله سبحانه يغفر لعبده ويستجيب لدعواته عندما يكون العبد مؤمناً مخلصاً في دعوته، مُحِبّاً لله ولرسوله، والشاعر في مثل ذلك يقول:(٥١).

رضيت من الدنيا وإن كنتُ مُثرياً بعفّة نفس لا تميل إلى الوَفْرِ
وأخلصت للرحمن فيما نويته فعاملني باللطف من حيث لا أدري
إذا ما أراد الله خيراً لعبده هداه بنور اليُسر في ظلمة العُسْرِ

لذا كانت الضراعة والتوبة والاستغفار أموراً واجبة على المرء الذي يريد مرضاة الله سبحانه، وشاعرنا لا يغفل عن مثل هذه النسائم الطيبة إذ يقول مُعبّراً عنها بالقول المنظوم:(٥٢).

فاضرع إلى الله واستوهبه مغفرة   تمحو الذنوب فجاني الذنب يعتذرُ
واعجل ولا تنتظر توباً غداة غَدٍ   فليس في كل حين تُقبَلُ العـذَرُ

نعم ليست كل حين تقبل التوبة من العبد، ولها أوقات حدّدها الرحمن الرحيم بقوله الكريم في سورة النساء الآيتين (١٧،١٨): «إنما التوبة على الله للّذين يعملون السوء بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً» صدق الله العظيم.

والمرء عندما يسمع كثرة ترداد الشاعر لمعاني الموت، وكثرة ذكر الراحلين من عظماء التاريخ الذين كانت لهم سطوة وجاه، عندما يسمع المرء العاقل كل هذه القيم التي تذكر بالآخرة، فإنه عند ذلك سرعان ما يرجع إلى الله تائباً نادماً لما كان قد اقترف لا سيما ومغفرة الله ورحمته واسعتان لمن آمن وتاب وعمل الصالحات، والشاعر عند هذه المعاني يقف وقفة الناصح الأمين فيقول في أكثر من قصيدة:(٥٣)

كل امـــرىءٍ سائـــر لمنزلـــة   لـيس لـه عـن فنائها هَـرَبُ
لا الباز ينجو من الحِمام ولا   يخلص منه الحَمَـامُ والخَـرَبُ
يغـدو الفتـى لاهيـاً بعيشتـه   وليس يدري ما الصاب والضَّرَبُ
فَـتُبْ إلى الله قبـل مَنْدَمـةٍ   تـكثر فيها الهمـومُ والكُـرَبُ
فـإنَّ للدهـر لـو فطنـت لـه   قوساً من الموت سهمها غَـرَبُ

ومثل هذه المعاني يكرّرها في قصيدة دالية ثانية حيث يقول فيها:(٥٤)

بُلينـا وسربـالُ الزمـان جديــدُ   وهل لامرىءٍ في العالمين خلود؟؟
قضى آدم في الدهر وهو أبو الورى   وكل الذي من صلبـه سَيبيــدُ
فما هذه الدنيا وإنْ جلّ قدرها   سوى مهلـة نـأتي لها ونعـود

وهذا مصداق لقول الحق تبارك وتعالى في سورة الحج الآية (٥): «يا أيها الناس إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغةٍ مخلّقة

وغير مخلقة، لنبيّن لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ومنكم مَنْ يُتوفّى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً».

ومثل ذلك أيضاً قوله:(٥٥)

كُلُّ امرىءٍ يوماً ملاقٍ ربَّه ... والناس في الدنيا على ميعاد
فلينظر الإنسان نظرة عاقل ... لمصارع الآباء والأجداد

هؤلاء الآباء والأجداد الذين قضوا فكانوا عبرة لنا، قد ذكرهم محمود البارودي في القصيدة الدالية سابقة الذكر بالأبيات التالية:

عصف الزمان بهم فبدّد شملهم ... في الأرض بين تهائمٍ ونجاد
أفنى الجبابر من (مقاول) حمير ... وأولى الزعامة من (ثمودَ وعاد)
ورمى (قضاعة) فاستباح ديارها ... بالسخط من (سابور) ذي الأجناد
وأصاب من عَرَضٍ (إياد) فأصبحت ... منكوسة الأعلام في (سنداد)
فَسَل (المدائن) فهي منجم عِبرة ... عمّا رأت من حاضرٍ أو باد
واعكف على الهرمين وأسأل عنهما ... (بلهيب) فهو خطيب ذاك الوادي

فهو قد ذكر **المقاول** وهم ملوك حمير، وحمير هو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان أحد أجداد قبائل اليمن، وإليه ينسب كثير منها.

وثمود: هم قوم صالح. وعاد: هم قوم هود (وهما قبيلتان من العرب الأولى).

وقضاعة: قبائل وبطون كثيرة من اليمن تنسب إلى قضاعة (وهو عمرو بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير).

وسابور: وهو ابن أردشير أحد ملوك الأكاسرة، وسابور معرّبة وأصلها شاه بور، ولقبه خواست.

وإياد: هو أبو إحدى القبائل التي سميت باسمه، وهو إياد بن نزار بن معد بن عدنان، وإليه تُنْسَبُ قبيلة إياد التي منها قس بن ساعدة الأيادي الخطيب المشهور، ومنها لقيط ابن يعمر الأيادي الشاعر المشهور الذي برز ذكره في معركة **ذي قار**.

وسنداد: منازل لأياد قريبة من الكوفة، وسميت بسنداد نسبة إلى أحد ملوك الفرس.

والمدائن: مدينة كسرى قرب بغداد، وسميت بهذا الاسم لكبرها، وأول من نزلها أنو شروان بن قباذ.

وبلهيب: هو أبو الهول

وعندما نتفحَّص دعواته الجليلة في شعره لحكام مصر بالدرجة الأولى، ولحكام المسلمين قاطبة، فإننا نجد كثرة إلحاحه على استعمال **الشورى** في الحكم لما لها من أثر عظيم في إقامة العدل وإسناد الأمور لأصحابها، وبالتالي سير الأمور سيراً حسناً يرضي الله سبحانه، من ذلك قوله في قصيدة مدح بها الخديوي **محمد توفيق** سنة ١٢٩٧هـ، حيث عمل هذا الخديوي مجلس شورى عند اعتلائه عرش مصر فقال:[٥٦]

سَنَّ المشورة وهي أكرم خطَّةٍ — يجري عليها كل راعٍ مُـرشد
هي عصمة الدين التي أوحى بها — ربُّ العباد إلى النبيِّ (محمـد)
فمن استعان بها تأيَّد ملكـه — ومن استهان بأمرها لم يـرشد
أمران ما اجتمعا لقائد أمَّـةٍ — إلاَّ جنـى بهمـا ثمار السؤدد
هيهات يحيا الملك دون مشورةٍ — ويعز ركنُ المجد ما لم يُعْمَـد
فاعكف على الشورى تجد في طيِّها — من بيِّنات الحكم ما لم يُوجد

ففي البيت الثاني إشارة من الله سبحانه إلى نبيِّه (محمدٍ) صلى الله عليه وسلم في سورة آل عمران لقوله الكريم: «فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر».

وقد أثنى الله سبحانه على عباده الصالحين باستخدام الشورى في قوله الكريم في سورة الشورى «وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون».

ويعتزُّ بوالده لأنه يشاور غيره في الأمور العامة، ولا يستبد برأي دونهم فيقول:[٥٧]

لا يستبدُّ بـرأي قبل تـبصرة — ولا يهم بأمـر قبـل إعـداد

وعندما كان الشاعر البارودي ضمن الحملة المصرية إلى جانب الجيش التركي لقتال بني الأصفر من الروس سنة ١٢٩٤هـ، فإنه ينظم قصيدة دالية طويلة يصف فيها المعارك وسيرها، وينوّه بحسن تعاون الجند فيما بينهم في أمور القتال، في شورى عادت عليهم بالخير العميم والنفع العظيم والنصر المبين، لا سيما إذا كانت في رسم الخطط الحربية ورصد العدو، وذلك في مثل قوله:[٥٨]

نروح إلى الشورى إذا أقبل الدُّجى — ونغدو عليهم بالمنايا إذا تغدو

وهذا دليل على نجاح خططهم الحربية نتيجة ما استلهموه من تعاون في رسم الخطط وتشاور حولها فيما بينهم، ورحم الله بشار بن برد في قوله:[٥٩]

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة — فـريش الخوافي قـوّة للقـوادم

هذا، وحسبنا من شعر البارودي الإسلامي ما نظمه متغنياً بحب الله العظيم، وقدرته في إبداع خلقه، فهو الخلاّق العظيم الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، والذي جعل من الماء كل شيء حيّ، والذي أخرج الأزهار من أكمامها، وألهم الطير الإنشاد والغناء، والذي زيّن الأرض بما أودعها من كنوز ومعالم وكائنات حيّة، وزيّن السماء بالنجوم والأقمار، سبحانه هو الخلاّق العظيم لا تحده الصفات. وشاعرنا يلمح لبعض هذا في مثل قوله:(٦٠)

من قلّد الزهر جُمان النّدى ... وألهم القمريَّ حتى شدا
وزيّن الأرض بألوانها ... وصوّر الأبيض والأسودا
سبحان من أبدع في ملكه ... حتى بدا من صنعه ما بدا
تنزَّهت عن صفة ذاتُه ... وقام في لاهوته أوحَدا
فاسجد له واقصد حماه تجد ... ربّاً كريماً ومليكاً هدى

ويستطرد البارودي في ذكر بعض آيات الله العظيم، متقرّباً إليه يحسن التفكر بعظمته جلّ علاه فيقول:(٦١)

فقم بنا يا صاح نرع النّدى ... ونسأل الله عميم النّدى
أما ترى كيف استحار الدُجى ... وكيف ضلَّ النجم حتى اهتدى
ولاح خيط الفجر في سُحْرَةٍ ... كصارم في قسطل جُرّدا
مالي وللناس وأعمالهم ... كلُّ امرىءٍ رهنُ حسابٍ غدا
هل هي إلاّ مدة تنقضي ... وكلُّ نفس خُلِقَت للرّدى

ولم يقف البارودي في أدبه، شعره ونثره، عند حدّ التفكر أو الدعاء، ذلك التفكر في ملكوت السموات والأرض حيث ينتقل به إلى عالم الإعجاب بقدرة الواحد الخلاّق، فيستشعر العظمة الإلهية، ويذرف دمع ندم وخشوع، ويطمع في عفو الله القدير وفي غفرانه، بل نراه يكثر من الدعاء والخشوع، وكلاهما من أصناف العبادة والتقرّب إلى الله في مثل قوله عندما كان يبعد عن بلاده مصر، في حرب أو اغتراب ونفي، فيحنّ لها والمرارة تعصر فؤاده فيقول:(٦٢)

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج ... حتى قتلت بها ظُلماً بلا حَرَجِ

هيهات يسلكُ لومُ العاذلين إلى قلبٍ بحبِّ رسول الله مُمْتَزِجِ
هو النبيُّ الذي لولا هدايته لكان أعلمُ من في الأرض كالهمج
يا ربِّ بالمصطفى هَبْ لي وإن عظمت جرائمي، رحمةً تُغني عن الحُجَج
ولا تكلني إلى نفسي فإنَّ يدي مغلولةٌ وصباحي غيرُ منبلج
مالي سواك وأنت المستعان إذا ضاق الزحام غداة الموقف الحرج
لم يبق لي أمل إلاّ إليك فلا تقطع رجائي فقد أشفقت من حَرجي

فهو يطلب مُستمنحاً العون والسداد والرّشاد من رب العباد، مبيّناً ضعف المخلوق وقلّة حيلته أمام الخالق البارىء المصور، فيردّد أيضاً قائلاً وبنغمة حزينة:[٦٣]

فمن لي بأيام مضت قبل هذه بمصر وعيش لو يدوم حميد
عسى الله يقضي قُربةً بعد غُربةٍ فيفرح باللقيا أبٌ ووليد

وبعد، فهذا غيض من فيض من إسلاميات محمود سامي البارودي الذي كان أميناً مع الله ومع نفسه ومع الناس، مخلصاً في كل عمل يقوم به ويعلم أنه خير وغير مغضب لله سبحانه. وفوق ذلك، فهو باعث نهضة شعرية عارمة بعد زمن من الركود كاد يصبح طويلاً جداً، وعاملاً هدم صرح الأدب الموروث بعد فترة من الانحطاط الأدبي. وهو لم يقف عند حدّ التطوير الشعري والنثري في قوة وصلابة، بل تعدّى ذلك إلى مشابهة الأقدمين في طريقة نظمهم، واختيار عباراتهم، ضمن معارضات شعرية شابه فيها شعراء الجاهلية والإسلام، ومعارضات نثرية شابه فيها مقامات بديع الزمان الهمذاني وأبي القاسم الحريري، مما ساعد على بعث الأدب القديم قوياً أخّاذاً، فقارب الأقوال والأفعال إلى أذهان أهل العصر الحديث، كما رجع بمدارك أهل العصر الحاضر إلى ربوع نجد وأطراف جزيرة العرب. ومع هذا وذاك، فقد استعمل الكثير من المحسنات اللفظية التي شاعت وانتشرت في أزمان أدبية بعيدة، فقرَّبها إلى عصر التمدن والتقدم، فربط الماضي بالحاضر مما ساعد كثيراً على إثراء المكتبة العربية بكثرة الروافد الأدبية المنوعة.

وأخيراً يرحم الله محمود سامي البارودي، فقد كان فارس السيف والقلم، وصدر المجالس والأندية، وحامل راية النهضة الأدبية الحديثة.

● الهوامش ●

١ – ديوان البارودي ج١ ص ٩٥ شرح محمود الإمام المنصوري.
٢ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ٨٩ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م.
٣ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ٩٤.
٤ – ديوان البوصيري.
٥ – الموازنة بين الشعراء ص ١٨٤ د. زكي مبارك.
٦ – مقدمة ديوان البارودي ص ز.
٧ – محمود سامي البارودي (نوابغ الفكر العربي) ص ٣٤ للأستاذ عمر الدسوقي، طبعة دار المعارف – بيروت سنة ١٩٥٣م.
٨ – محمود سامي البارودي (نوابغ الفكر العربي) ص ٢٣.
٩ – في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ج١ ص ٢٢٥. الطبعة السابعة، نشر دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٦٦م.
١٠ – في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ج١ ص ٢٥٥
١١ – في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ج١ ص ٢٩٣.
١٢ – محمود سامي البارودي (نوابغ الفكر العربي) ص ٥٣.
١٣ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ٢٢٦.
١٤ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ٢٢٧.
١٥ – سورة النمل الآية رقم (٦٢).
١٦ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ١٢٥.
١٧ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ٨٢.
١٨ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ٨٣. في الأدب الحديث لعمر الدسوقي ج١ ص ٢٦٩.
١٩ – البارودي رائد الشعر الحديث د. شوقي ضيف ص ٨٤.
٢٠ – في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ج١ ص ٢٢٦.
٢١ – في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ج١ ص ٢٢٦.
٢٢ – ديوان البارودي ج١ ص ٢٠٢.
٢٣ – سورة الحج الآية رقم (١).
٢٤ – سورة لقمان الآية رقم (٣٣).
٢٥ – ديوان البارودي ج١ ص ٢٣٣.
٢٦ – سورة الرحمن الآيتان (٢٦،٢٧).
٢٧ – الديوان ج١ ص ٢٥٢.
٢٨ – الديوان ج١ ص ٣٠٨.
٢٩ – الديوان ج١ ص ١٥.
٣٠ – الديوان ج١ ص ١٠٣.
٣١ – الديوان ج١ ص ١٠٤.
٣٢ – الديوان ج١ ص ١١٢.
٣٣ – الديوان ج١ ص ١١٣.
٣٤ – الديوان ج١ ص ١١٩.
٣٥ – الديوان ج١ ص ١٩٣.
٣٦ – الديوان ج١ ص ١٩٦.

٣٧ — الديوان ج١ ص ١١٤.
٣٨ — الديوان ج٢ ص ١٢.
٣٩ — الديوان ج٢ ص ٨٩.
٤٠ — الديوان ج٢ ص ١٢٦.
٤١ — الديوان ج٢ ص ٥٠٧.
٤٢ — الديوان ج٢ ص ٥٩٠.
٤٣ — الديوان ج٢ ص ١٨٤.
٤٤ — الديوان ج٢ ص ٥٥٥.
٤٥ — الديوان ج٢ ص ٦٢١.
٤٦ — الديوان ج٢ ص ٦٢٥.
٤٧ — الديوان ج١ ص ١٢٠.
٤٨ — الديوان ج١ ص ١١٣.
٤٩ — الديوان ج١ ص ١٣٥.
٥٠ — الديوان ج١ ص ٩٤.
٥١ — الديوان ج١ ص ١٢٨.
٥٢ — الديوان ج١ ص ١٩١.
٥٣ — الديوان ج١ ص ٤٧، ٤٨.
٥٤ — الديوان ج١ ص ١٢١.
٥٥ — الديوان ج١ ص ٩٣.
٥٦ — الديوان ج١ ص ٦٩.
٥٧ — الديوان ج١ ص ٩٥.
٥٨ — الديوان ج١ ص ٨٢.
٥٩ — الأغاني ج٣ ص ٢١٣.
٦٠ — الديوان ج١ ص ١٠٣.
٦١ — الديوان ج١ ص ١٠٣.
٦٢ — الديوان ج١ ص ٥٤ وما بعدها.
٦٣ — الديوان ج١ ص ٨٥.

● ثبت المصادر والمراجع ●

١ — القرآن الكريم.
٢ — الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج٣ طبعة الساسي — دار الكتاب العربي — بيروت.
٣ — البارودي رائد الشعر الحديث، د. شوقي ضيف طبعة دار المعارف المصرية سنة ١٩٦٤م.
٤ — ديوان البارودي شرح محمود الإمام المنصوري.
٥ — ديوان البوصيري.
٦ — في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي، الطبعة السابعة، نشر دار الكتاب العربي — بيروت — سنة ١٩٦٦م.
٧ — محمود سامي البارودي (نوابغ الفكر العربي) للأستاذ عمر الدسوقي، طبعة — دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣م.
٨ — الموازنة بين الشعراء د. زكي مبارك.